معركة الذات والحضارة

أ.نجاة بلحمام/ جامعة وهران (*)

***

اهتم مالك بن نبي (1905م-1973م) بقضايا العالم المتخلف، ودرسها تحت عنوان (مشكلات الحضارة) فكانت هذه السلسلة التي بدأها بباريس ثم تتباعت حلقاتها بمصر، فالجزائر، لتخرج بعناوين كبرى، منها (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) (الفكرة الأفروأسيوية) (شروط النهضة) (تأملات) (آفاق جزائرية) (وجهة العالم الإسلامي) (ميلاد مجتمع)....

وفي سياق الحديث عن مالك بن نبي نتحدث عن الهم النهضوي الذي يستقطب اهتمام مفكرينا منذ عصر النهضة، أي منذ أمد بعيد.

لقد تحدث هذا المفكر عن ظاهرة التأزم التي يمر بها المسلم وأوجزها في الانفصال الذي يعيشه في شخصيته، الانفصال بين الروحي والاجتماعي الذي نلمسه في سلوك المسلم الحديث في المسجد وفي الشارع.

فالمسلم بنظر مالك بن نبي يجد نفسه في محيط المسجد لأن المسجد هو الذي ينشئ بالنسبة لضميره الوسط الأولي الذي يكون فيه، إنه يجد فيه "شخصه".

---

* – الأستاذة نجاة بلحمام : عضوبمخبر الأبعاد القيمية بالجزائر، قسم الفلسفة، جامعة وهران، الجزائر.

لكنه وهو على عتبة المسجد، يعقد صلته بهذا الوسط الأولي، ويجد نفسه في نطاق الظروف الاجتماعية التي تمحو شخصه وتبعث فيه – الفرد الخام- فالحقيقة التي زلزلت كيانه وهو في المسجد لم تتبعه في الشارع.

إن هناك انفصال بين العنصر الروحي والعنصر الاجتماعي وهذا الانفصال الذي عبر مالك بن نبي عنه بقصه **"أوسكار وايلد"** المشهورة وهي قصة عالم طبيب يطبق على نفسه طرقا علمية تنتهي بتحليل ذاته إلى شخصيتين: شخصية الوحش المجرم في شخص **"مستر هايد"** وشخصية العالم الفاضل في الدكتور **"جيكل"**

وتاريخ هذا الانفصال يرجع إلى عهد بعيد فقد حدث بين العنصر الروحي والعنصر السياسي، بين الدولة والفكرة الدينية وقد رأى "مالك بن نبي" أن الحل النهضوي يكمن في توظيف الطبيعة الإنسانية أي غرائز الفرد واستخراج الطاقة الحيوية اللازمة لأداء النشاط المشترك في التاريخ، لكن هذه الطاقة الحيوية يجب أن تخضع لنظام دقيق تمليه فكرة عليا توجهها وتحولها من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة في المقام الأول إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الإنسان حين يساهم في النشاط المشترك لمجتمع ما.

إذن لابد من فكرة عليا تصل بين الروحي والاجتماعي هذه الفكرة هي التي تجعل المسلم يتماثل مع ذاته في المسجد وفي الشارع وفي هذه السياق يستلهم مالك بن نبي من واقع المجتمع العربي الإسلامي أين

أخضعت هذه الفكرة الطاقة الحيوية لدى البدوي العربي لنظامها الدقيق وجعلت منه إنسانا متحضرا.

هذه الطاقة التي تتحول في صورة غريزة التملك المطبوعة في الإنسان تتحول إلى طاقة محكومة منظمة موجهة نحو المهام الاجتماعية، فالنبي صلى الله عليه وسلم عندما كان مشغولا في المدينة بالمطالب المادية للدولة الإسلامية الفتية في التحضير للحرب التي تبدأ بمعركة بدر كان صحابته يقدمون له عن طبيب خاطر جزءا من أموالهم لقد كان سيد بن عبادة يعبر عن عمله هذا بقوله.

"يا رسول الله: خذ من أموالنا ما شئت، وما أخذته منها أحب إلينا مما تركت[1].

بهذا المعنى يتحرر الفرد من قانون الطبيعة المفطور في ذاته، ويخضع وجوده كله للمقتضيات الروحية التي أوجدتها الفكرة الدينية في نفسه.

إن مشكلة العالم العربي الإسلامي هي مع نفسه، لذلك لابد أن تكون مبادرة التغيير من الذات للذات لكن ضمن مبادرة حضارية كبرى وشاملة، فالمبادرة الحضارية نحو الذات بحاجة إلى رؤية شاملة، تتناول الوجود العربي والإسلامي في كليته وشموليته فكريا واجتماعيا وروحيا وماديا، نفسيا واقتصاديا كونيا وتاريخيا، فرديا وجماعيا.

لقد كانت الحلول الإصلاحية منذ بداية النهضة في القرن التاسع عشر إلى حد الآن جزئية، فمن الحل التربوي مع بدء النهضة إلى الحل

---

[1]– بن نبي (مالك)، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين إصدار ندوة مالك بن نبي ص 100.

الليبرالي القائم على اقتباس الديمقراطية الغربية إلى الحل القومي السياسي الذي كان يكمن في التغيير السياسي إلى الحل الاجتماعي إلى العسكري....

كل هذه الحلول كانت تنم عن الصيغة الجزئية التي تميز بها العقل العربي بدل الاهتمام بالكليات والتصورات العامة.

إن الأزمة شاملة ولابد من حل شامل يتناول الإنسان والوجود والتاريخ والمجتمع والاقتصاد، وهذا ما كان عليه الحل الإسلامي الذي يعتبر من أهم الحلول الحضارية الشاملة في تاريخ البشرية كونه تناول وعالج مشكلة الإنسان الروحية والكونية بعقيدة إلهية توحيدية هي أساس رؤيته الشاملة فقد نظر إلى مشكلة الإنسان الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتشريعية وحتى ما يتعلق بالمجال الأدبي والفني.

بهذا المعنى، معنى الشمول يحمل الإسلام استجابة حضارية معينة مستمدة من ثوابته لكل عصر، وفي نفس الوقت تتوافق هذه الاستجابة الحضارية مع متغيرات الزمن التي منحها الإسلام دورها في التطور، هذه المتغيرات تؤخذ لما تأتي به من إغناء لتجربة الإنسان على الأرض.

إن العقل العربي والإسلامي القويم الذي ترعرع في ظل رؤية الإسلام الشمولية للإنسان والكون والحياة لا يمكن أن يكون تجزئيا فلابد أن يكون شموليا والدعوة حينذاك إلى إحياء التراث يجب أن تقوم على

اتخاذ المنهج الشمولي في الرؤية الإسلامية بتطبيقه على المشكلات الحالية.

إن دفع الإنسان العربي المسلم لمواجهة العدو عسكريا مثلا لابد أن يقوم أولا على التأكد من تعبئة هذا الإنسان روحيا وتحصيه أخلاقيا بالإضافة إلى الوعي السياسي فلا يوجد هناك من يموت من أجل الموت بل لابد من عقيدة وقيم تدفعه إلى ذلك فقبل الدعوة إلى الجهاد لابد من الدعوة إلى التوحيد والإيمان والأخلاق والتكافل الاجتماعي.

والحل الشمولي يبدأ بالحلول المجالية أي كل مختصر في مجاله يؤدي دوره ليكون هناك مفكرون شموليون يستوعبون البحوث الاختصاصية ضمن قالب شمولي نظري وعملي هو مرشدا لحركة المجتمع، إذن لسيرورة الحضارة.

إن معركة النهضة والحضارة هي معركة الذات، فالعرب المسلمون عندما أقبلوا على حضارات الأمم، إنما أقبلوا إليها من موقع القوة والثقة بالذات، هؤلاء العرب المسلمون استوعبوا أفكار أرسطو وأفلاطون وأفلوطين وتجاوزوا علوم الحضارات الشرقية، فاستحدثوا الحبر، واجتهدوا في الأرقام والحساب والفلك، فكان منهم ابن الهيثم وابن رشد وابن خلدون...

إن معركة الذات هي الوجه الآخر لمعركة الحضارة، فكسب معركة الذات شرط أساسي لكسب معركة الحضارة هذا ما كان يعنيه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما نبهنا إلى أن الجهاد الأكبر، جهاد

النفس بنائها وتقويتها وتحصينها هو في المحل الأرفع بين أنواع الجهاد الأخرى لما لها من قداسة.

إذن يجب أن نكون في موقع قوة، وموقع ثقة بالذات لكي يحدث استيعاب تقدم العصر بالصورة الصحية أو بعبارة أخرى وعلى لسان مالك بن نبي "ينبغي أن نهيئ في بلادنا المحيط اللازم لتطبيق ما نتصور من حلول لمشكلاتنا الاجتماعية[1]. لكن أكثر من ذلك لمشكلاتنا الحضارية.

إن الخطوة الحضارية الأولى تبدأ من الداخل، وتولد حسب حاجة المجتمع إليها وحسب ما يبلغه هذا المجتمع من تطور كما هو حادث عند الغرب الذي بدأ نهضته الحديثة قبل خمسة قرون وتبلورت هذه النهضة تدريجيا بما يتوافق ومعايير هذا المجتمع. فمن الفكرة الاجتماعية (الاشتراكية أو الماركسية) إلى الفكرة العلمانية التي جاءت والمجتمعات الغربية قد حققت نضجا فكريا وعقلانيا للدين ميزت من خلاله بين مجال الاجتهاد الإنساني ومجال التسليم الديني، أي بين المجال الذي يقبل التغيير حسب تطورات الإنسان العقلية وظروفه وبين المجال الثابت الذي يختص بجوهر الإيمان وأسس العقيدة، بمعنى أن الغرب استوعب العلمنة دون أن يفقد الإيمان أو التراث الروحي.

[1]- بن نبي (مالك): ميلاد مجتمع مرجع سابق، ص97.

أقصد من ذلك أكثر أن النهضة تبدأ بالفكرة وتتشكل المجتمعات حسب معاييرها، هذا ما لم يحدث في العالم العربي والإسلامي الذي بدأت النهضة الحديثة عنده ليس من تلك الصورة التراثية التي استقر عليها أيام المأمون والمعتزلة والكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن خلدون وابن حيان والبيروني...

بل بدأت النهضة بشكل اضطراري بدءا بالقومية والعلمانية والمادية والاشتراكية... فما استوعبه الغرب على مدى خمسة قرون ومن داخلهم سقط على العالم العربي والإسلامي دفعة واحدة ومن الخارج، أي أن النهضة أتتهم مع الاستعمار السياسي والعسكري، فلم يكن أبدا من السهولة التمييز بين الفكرة الحضارية الإنسانية والفكرة الاستعمارية، أقصد ما قلته سابقا أن النهضة أتتهم وهم في موقع ضعف.

إنه منذ بدء النهضة العربية قبل قرن ونصف والمبادرة النهضوية هي مبادرة فردية (بمعنى أن كل بلد عربي يحاول بمفرده أن يستوعب الحضارة الحديثة)، بينما التجمعات الكبرى هي سمة العصر فما كنا مثلا لنسمع اليوم عن اليابان لو بقيت مجرد مناطق ومقاطعات منفصلة.

إن معركة النهضة وبالتالي الحضارة لابد أن تتحقق ضمن التجمع الكبير، فإذا كانت معركة الثقة بالذات هي الشرط الأساسي لتحقيق معركة الحضارة فلن يكون هناك ثقة بالذات حقيقية إلا في ظل التجمع الكبير للعرب والمسلمون أي ضمن الكيان العربي الإسلامي لكن ضمن سياق الحضارة المصيري إذ لوكان العرب كيانا كبيرا هل فعلا

كانوا سيتركون الطائرات الإسرائيلية تصل إلى حيث تشاء في الوطن العربي، وهل كانت خاصة علمائنا ومفكرينا يتجهون للغرب طلبا للأمان والعيش، ونحن ندرك قيدا بأن الاستيعاب الحقيقي للحضارة يتطلب مئات العلماء والباحثين وآلاف من العمال المهرة، والكثير الكثير من الأموال، ثم مع كل هذا قدرة عسكرية على حماية الإنجاز العلمي.

إذن معركة النهضة والحضارة تبدأ بالفكرة المنبثقة من الداخل، وتوجيهه الفكرة ومقتضيات المجتمع لكن ضمن كيان أو تجمع كبير (الكيان الكبير بشرا وأرضا ومالا ومواد وعمقا استراتيجيا ووحدة قيادة وتخطيط).

إن النهضة والتقدم لا يتحققان إلا كإنجاز اجتماعي، قد يبدأ من الفرد أو النخبة أو السلطة لكنه لا يتحول من القوة إلى الفعل إلا بحركة المجتمع، حين يكون مستوعبا لفلسفة النهضة وفاعلا في تحققها، فالمجتمع الذي لا يدرك فلسفة النهضة والحضارة لا يمكنه أن يندفع أو يشارك في صنعها، ومن داخل هذا الخطاب يقول "**برهان غليون**" في سياق حديثه عن الحداثة في مؤلفه **اغتيال العقل ص 296**: "إن إيديولوجية الحداثة قد نشأت لتساعد المجتمع على عقلنة هذه الحركة إذ لا يستطيع المجتمع أن يقوم بنشاط واسع وبمبادرات وتغييرات تأريخية كبرى دون أن يسجلها في سجله العقلي، ويجعلها واعية وشفافة ومدركة ومن ثم مقبولة. وأن قيمة هذه العقلنة تنبع دائما من قدرتها على إعطاء آفاق أوسع للحركة وحل المشكلات الثقافية أو المادية التي يمكن أن تفق عقبة أمامها. لكن بقدر ما تحولت هذه

العقلانية في العالم العربي إلى إيديولوجية فئة اجتماعية وأصبحت تحدد إطار واستراتيجية صراعها مع الفئات الأخرى، فقدت شيئا فشيئا طابعها الموضوعي، أي قدرتها على التحكم بالممارسة التحديثية، وضبطها والسيطرة على آثارها السلبية، وتحولت إلى دعوة عقلية، فلم تعد تهتم بالنهضة وشروطها وإنما أصبحت تدافع عن مشروعية الحداثة، وبمعنى آخر مشروعية وجود الفئة الاجتماعية المتماهية معها والنظام الاجتماعي-السياسي- الذي ينتجها، فأصبحت معاصرة هذه الفئة للحضارة هي أيضا بديل معاصرة المجتمع لها وعائقا أمام تطور الحداثة نفسها، أي أمام النهضة..." [1].

إن المشروع النهضوي ومن ثم الحضاري ينطلق نعم من الفكرة الأولية الداخلية لكن هذه الفكرة يفترض أن تأخذ في نطاق اهتمامها مشروعين فكريين:

- مشروع دراسة البنية الفوقية للمجتمع العربي والإسلامي على مستوى الفكر.

ومشروع دراسة البنية المجتمعية التحتية على مستوى الواقع وما تفرزه من تأزم سياسي دائم في الحياة العربية الإسلامية.

لا ترتبط مشكلة النهضة بالنسبة لمالك بن نبي في تعليم المسلم عقيدة هوما يملكها وإنما في تفعيل هذه العقيدة بأن ترجع لها قوتها

---

[1]–زكي الميلاد: الفكر الإسلامي، قراءات ومراجعات، مؤسسة الأنشار العربي، لندن، بيروت، الطبعة الأولى 1999، ص65.

الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي يقول مالك بن نبي:" مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة"[1].

وتفعيل العقيدة لا يكون إلا من خلال تلك الروح المنطلقة بفطرتها والرجوع إلى القرآن في نقائه، ولا يعني ذلك رفض كل الاجتهادات وإنما رفض كل محاولات تقديس هذه الاجتهادات إلى جعلها في مرتبة القرآن.

هذا يعني أنه من الضروري البحث عن طرق تحقيق الأفكار الفعالة في عملية التغيير لكن التغيير بالمعنى القرآني يفترض تغييرا في حال الذات أو النفس: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

يولي مالك بن نبي أهمية بالغة لعامل الزمن في تحقيق النهضة فكل تأخر للقيام بنهضة حقيقية يوسع الفجوة بين العالم المتقدم والعالم الإسلامي المتخلف لأن ذلك يسمح بوجود مشاكل جديدة لابد لها من عوامل جديدة، كما يؤدي إلى حلول مزيفة ترسخ التخلف.

إنه مثلا أصبحنا نضم إلى الإسلام كل ما نعتقد أنه قيمة حضارية دون تحليل، ودون معرفة درجة ارتباطه بالإسلام كحديثنا عن الديمقراطية في الإسلام.

كما يؤكد مالك بن نبي في فعل النهضة الأخذ بعين الاعتبار وبالأولوية المواضيع التي لها علاقة مباشرة بحياة الناس أي الاحتياجات الأساسية

---

[1]– بن نبي (مالك): وجهة العالم الإسلامي، ترجمة شاهين عبد الصبور، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1981، ص 48.

يقول: "أن نتحدث إلى فقير لا يجد ما يسد به الرمق اليوم عن الثورة الطائلة التي كانت لآبائه وأجداده نأتيه بنصيب من التسلية من متاعبه بوسيلة مخدر يعزل فكره مؤقتا وضميره عن الشعور بها دون أن نشفيها كذلك أمراض مجتمع بذكر أمجاد ماضيه"[1].

ولا يعني ذلك عدم التواصل مع الماضي لأن النهضة بنظر مالك بن نبي لها بعدان:

- البعد الذي يتصل بالماضي أي بخلاصة التدهور
- البعد الذي يتصل بخمائر المصير وجذور والمستقبل[2].

وكل حركة نهضوية بنظر "بن نبي" تقوم بدءا بتصفية الإطار الأخلاقي والاجتماعي والتقاليد والعادات من عوامل السلبية حتى يقوم المجال الإيجابي للتعبير.

يعطي مالك بن نبي الصياغة التالية لمعادلة الحضارة الإنسان + تراب + وقت= حضارة:

أولا: مشكلة الإنسان:

إن المشروع الإصلاحي يبدأ بتغيير الإنسان، ثم بتعليمه الانخراط في الجماعة ثم بالتنظيم فالنقد البناء. وتبدأ عملية التطور من الإنسان لأنه المخلوق الوحيد القادر على قيادة حركة البناء، وتحقيق قفزات نوعية،

---

[1]– بن نبي (مالك): إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، القاهرة، مصر، 1969، ص 13.

[2]– بن نبي (مالك): شروط النهضة، ترجمة شاهين عبد لصبور، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص 79–80.

تمهيدا لظهور الحضارة، أما المادة فمهما يكن من أمرها تكديسا وزيادة، فإنها تبقى تجميع كمي لا يعطي معنى كيفيا نوعيا، إلا بسلامة استخدام الإنسان له.

ولكي يتحقق التغيير في محيطنا يجب أن يتحقق أولا في أنفسنا، فمنهج الرسالة يقتضي التغيير، والتغيير يقتضي تغيير ما في النفوس أولا... لقوله تعالى: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، وعندها يجب على المسلم أن يحقق بمفرده شروطا ثلاثة: -أن يعرف نفسه- أن يعرف الآخرين، وأن لا يتعالى عليهم وأن لا يتجاهلهم – أن يعرف الآخرين بنفسه ولكن بالصورة المحببة، أي بالصورة التي أجريت عليها كل عمليات التغيير بعد التنقية والتصفية من كل رواسب القابلية للاستعمار والتخلف وأصناف التقهقر.

إن الإنسان هو الهدف وهو نقطة البدء في التغيير والبناء، ومهما جرت محاولات تحديثية بوساطة الاستعارة، أو الشراء للمصنوعات ومنتجات التقنية، فإن هذه المحاولات ستكون عقيمة، طالما أنهم لم تبدأ من حيث يجب، فالحل الوحيد هو تكوين الفرد العامل لرسالته في التاريخ، والغني بأفكاره على حساب أشيائه.

إن العلوم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية تعد اليوم أكثر ضرورة من العلوم المادية، فهذه تعتبر خطرا في مجتمع مازال الناس يجهلون فيه حقيقة أنفسهم أو يتجاهلونها، فإعداد إنسان الحضارة أشق كثيرا من صنع محرك أو تقنية متطورة، ومما يؤسف له أن حملة الشهادات العليا في هذه الاختصاصات هم أكثر عددا في البلدان المتخلفة لكنهم،

لم يكونوا إلا حملة أوراق يذكر فيها اختصاصهم النظري، فصاروا عبئا ثقيلا على مسيرة التنمية والإصلاح، فهم القادة في المجتمعات المتخلفة على الرغم من عجزهم عن حل أبسط المشكلات بطريقة علمية عملية، وإلا لما تخلف مشروع النهضة حتى الوقت الحاضر، ونحن بحاجة إلى دروس في منهجية العمل في سائر مستويات عملنا.

ولتبدأ المنهجية أولا في مستوى الحديث المجرد، لأن كل عمل اجتماعي يقتضي تبادل أفكار بين عدد من الأشخاص، إن الحوار هو أبسط صورة لتبادل الأفكار، وهو المرحلة التمهيدية البسيطة لكل عمل مشترك، فقواعد الحديث إذن لا تخص حسن الآداب فقط، بل هي جزء رئيسي من تقنية العمل.

فالقضية إذن، لا تخص قواعد الحديث وحسن السلوك في المنتديات والمؤتمرات والصالونات والمقاهي فحسب، بل تخص مباشرة تقنية العمل من زاوية "الفعالية"، حيث لا يكون الحديث لمجرد التسلية وإنما يخضع لقواعد العمل، الذي ليس سوى مشروع في محتوى بعض الكلمات وبعض الأفكار، وفي هذا المستوى، يتداخل الجانب الأخلاقي والجانب المنطقي ليكونا معا العمل الفعال أو العمل التافه، ونظن أننا لا نزال كأمة في المستوى الثاني.

وليس من الضروري ولا من الممكن أن يكون لمجتمع فقير، المليارات من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئا، الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه "الإنسان"...

وطالما كانت الإرادة الحضارية طوع الفكرة فإننا إزاء عصر التلقين المستبد بتصوراتنا ومفاهيمنا نواجه انهيار هذه الإرادة حتى لا تقوى على احتضان المصير، والصراع الفكري يجد إطاره الأوسع في البلاد المحكومة بشبكة من الإيحاءات، تدلي بها مراصد الاستعمار، لتصنع الأحداث حيال كل نهضة فاعلة في عالمنا العربي والإسلامي، فالمشكلة مشكلة أفكار في النهاية، لأننا بها ننظم خطانا في ثبات، وندفع طاقتنا في مضاء العزيمة، ونحشد وسائلنا في الإنجاز.

إن لكل حضارة نمطها وأسلوبها وخيارها، وخيار العالم الغربي ذي الأصول الرومانية الوثنية قد جنح بصره إلى ما حوله مما يحيط به: نحو "الأشياء"، بينما الحضارة العربية الإسلامية عقيدة التوحيد المتصل بالرسل قبلها سبح خيارها ونحو التطلع الغيبي وما وراء الطبيعة: نحو "الأفكار".

والإنسان حينما ينظم شبكة علاقاته الاجتماعية بوحي الفكرة في انبثاقها، فإنه يتحرك في مسيرته عبر الأشخاص والأشياء المحيطة به فيتخذ العالم الثقافي إطاره في إنجاز هذه المسيرة ويأخذ طابعه تبعا للعلاقة بين العناصر الثلاثة المتحركة: الأشياء، الأشخاص، الأفكار. فهناك توازن لابد منه بين العناصر الثلاثة يسكب مزيجها في قوالب الإنجاز الحضاري، فإذا ما استبد واحد من هذه العناصر وطغى على حساب العنصرين الآخرين فثمة أزمة حقيقية في مسيرة الحضارة تلقي بها خارج التاريخ فريسة طغيان الشيء أو طغيان الشخص.

ففي بلد متخلف يفرض الشيء طغيانه بسبب ندرته، تنشأ فيه عقد الكبت والميل نحو التكديس الذي يصبح في الإطار الاقتصادي إسرافا محضا أما في البلد المتقدم – وطبقا لدرجة تقدمه- فإن الشيء يسيطر بسبب وفرته وينتج نوعا من الإشباع، فيولد ميلا نحو الهروب إلى الأمام الذي يدفع الإنسان المتحضر دائما إلى تغيير إطار الحياة وفق صراعات الموضة في كل شيء حوله.

لكن طغيان الشخص يؤدي إلى نتائج في الإطار السياسي والاجتماعي تهدم بنيان الفكرة حينما تتجسد فيه، وكثيرا ما تعمد مراصد الرقابة في حركة العالم الثالث إلى دفع هذا الاتجاه المرضي إلى نهايته في عقول الجماهير لتحطم الفكرة البناءة من وراء سقوط الأشخاص الذين يمثلونها في النهاية، وتدفع الجماهير للبحث عن بديل للفكرة الأصلية من الشرق والغرب عبر بطل جديد.

فعدم التوازن في العناصر الثلاثة يفضي بنا على انهيار المجتمع، والمجتمع العربي الإسلامي يعاني في الوقت الحاضر بصورة خاصة من هذه الاتجاهات، لأن نهضته لم يخطط لها، ولم يفكر بها بطريقة تأخذ باعتبارها عوامل التبديد والتعويق سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي، وعلى الأغلب الاثنين معا.

إن أهمية الأفكار في حياة مجتمع معين تتجلى في صورتين: فهي إما أن تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، وإما أن تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة، تجعل النمو الاجتماعي صعبا أو مستحيلا، وهنالك فضلا عن ذلك جانب آخر لأهمية الأفكار في

العالم الحديث: ففي القرن التاسع عشر كانت العلاقات بين الأمم والشعوب علاقات "قوة"، وكان مركز الأمة يقدر بعدد مصانعها ومدافعها وأساطيلها البحرية ورصيدها من الذهب، ولكن القرن العشرين قد سجل في هذا الصدد تطورا معلوما، هو أنه قد أعلى من "الفكرة" باعتبارها قيمة قومية ودولية، هذا التطور لم تشعر به كثيرا البلدان المتخلفة، لأن عقدة تخلفها ذاتها قد نصبت في طريقها ضريا من الغرام السقيم بمقاييس القوة أي بالمقاييس القائمة على الأشياء).

فالإنسان المتخلف وبسبب عقدة تخلفه يرد المسافة بين التقدم والتخلف إلى نطاق (عالم الأشياء)، أو هو بتعبير آخر يرى أن تخلفه متمثل في نقص ما لديه من مدافع وطائرات... وبذلك يفقد مركب النقص لديه فاعليته الاجتماعية، إذ ينتهي من الوجهة النفسية إلى التشاؤم كما ينتهي من الوجهة الاجتماعية إلى تكديس المشكلات، فلكي يصبح مركب النقص لديه فعالا مؤثرا ينبغي أن يرد الإنسان تخلفه إلى مستوى الأفكار لا إلى مستوى الأشياء، فإن تطور العالم الجديد دائما يتركز اعتماده على المقاييس الفكرية.

ومشكلة الثقافة من الوجهة التربوية هي في جوهرها مشكلة توجيه الأفكار، ولذلك كان علينا أن نحدد المعنى العام لفكرة التوجيه، فهو بصفة عامة قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف، فكم من طاقات وقوى لم تستخدم، لأننا لا نعرف كيف نكّتلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زحمتها قوى أخرى صادرة عن المصدر نفسه، ومتجهة إلى الهدف نفسه. فالتوجيه هو

تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن نذير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول، في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية، وهذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، فلا يكفي مطلقا أن ننتج أفكارا، بل يجب أن نوجهها طبقا لمهمتها الاجتماعية التي نريد تحقيقها، إننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من اللافاعلية في أعمالنا، إذ يذهب جزء كبير منها في العبث وفي المحاولات الهازلة.
وإذا ما أردنا حصرا لهذه القضية فإننا سببها الأصيل في افتقادها الضابط بين الأشياء ووسائلها، وبين الأشياء وأهدافها، فثقافتنا لا تعرف مثلها العليا وفكرتنا لا تعرف التحقيق، وإن ذلك كله ليتكرر في كل عمل نعمله وفي كل خطوة نخطوها، إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، وهولا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا، بل إنه أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرا مؤثرا ويقولون كلاما منطقيا من شأنه أن يتحول في الحال عمل ونشاط.
أما في مستوى المجتمع الذي يعيش أزمة ثقافية فإننا نستطيع حصر العديد من الملاحظات ويكفينا لذلك أن نرى بالعين المجردة ما يدور في حياته الاقتصادية والسياسية[1].

---

[1]– حيث هناك ركود اقتصادي واستبداد سياسي.

إننا لو وضعنا سلما للقيم الثقافية جنبا إلى جنب مع السلم الاجتماعي، لوجدنا أن السلمين يتجهان في الاتجاه نفسه من الأسفل إلى الأعلى، أي أن المراكز الاجتماعية تكون تلقائيا موزعة حسب الدرجات الثقافية، أما المجتمع الذي يواجه أزمة ثقافية فإن السلمين ينعكسان الواحد بالنسبة للآخر انعكاسا تصبح معه القاعدة الشعبية- على الأقل بمحافظتها على الأخلاق- أثرى ثقافيا من قيادتها، فمن يرقى درجات السلم ويأخذ مكانه ودوره الاجتماعي في العالم المتخلف ليس من أهل الدرجات العلمية الثقافية، بل من يرضى عليه أولو الأمر في السلطة.

لكن كيف نخلص الإنسان من الاستعمار الثقافي والذي معناه استمرار الاستعمار السياسي والاقتصادي؟ إن الإنسان المطلوب تغييره من أجل تنشيط عملية البناء الحضاري لا يمكن تغييره وتخليصه من الدونية باتجاه الآخر المستعمر، إلا إذا هيأنا له مناخا تربويا متحررا من النفوذ الاستعماري وجوا ثقافيا أصيلا وشعورا متعاليا بالشخصية...

إن الإبداع والعطاء لن يكونا إلا عندما نترك لعالم الأفكار أن يحاول حل خفايا عالم الأشياء، في هذه الحالة تتوالى الحلول تترأى، وبذلك تقوم النهضة العلمية في مجتمع ما، أما إذا كان عالم الأفكار مستعارا فسيكون عنده قصور في الكشف وتراوح الأمور العلمية مكانها.

وإذا أردنا أن ننشئ ذاتا جديدة لإنسان اليوم في العالم العربي والإسلامي، فيقتضي ذلك قبل كل شيء تنقية المحيط الأسروي والمدرسي والاجتماعي العام من الاستعارات التي تحمل في طياتها هدفا استعماريا تخريبيا، يحاول زرع التفقير والتجهيل والانحراف في

مجتمعاتنا بشتى الوسائل، وأهمها استغلال غفلتنا، ويتحدد دور ومكانة الفرد في أمته تبعا لعلاقة المجتمع بالأشياء أو بالأشخاص أو بالأفكار.

إن كل مجتمع مهما كان مستواه من التطور له عامله الثقافي المعقد، ففي نشاطه المتناغم هنالك تشابك بين العوالم الثلاثة: الأشياء والأشخاص والأفكار، ولكن يظل هنالك دائما رجحان لأحد هذه العوالم الثلاثة، وبهذا الرجحان- الذي يظهر في سلوك المجتمع وفكره- يتميز كل مجتمع عن سواه من المجتمعات، والمجتمع المتخلف ليس موسوما حتما بنقص في الوسائل المادية (الأشياء)، وإنما بافتقاره للأفكار، ويتجلى بصفة خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفرة لديه، بقدر متفاوت من الفاعلية، وفي عجزه عن إيجاد غيرها، وعلى الأخص في أسلوبه في طرح مشاكله، عندما يتخلى عن أي رغبة ولو مترددة بالتصدي لها، أما حاله مع عالم الأشخاص، فإنه يدور حول شخص الزعيم فيجعل منه وثنا يعبد، ولا خلاص لمجتمع من تخلفه إلا إذا كان عالم أشياءه يدور حول عالم الأفكار لذلك: فإن أي ثورة، لن تستطيع تغيير الإنسان إن لم تكن لها قاعدة أخلاقية قوية.

إن الحوار بين المسؤولين والجماهير يعيد الجسر الذي يصل الشعب بالدولة، وليس غريبا في هذا المناخ من الثقة المتبادلة أن تتحقق المعجزات، ولوكان ثمنها مزيدا من التقشف، لأن الصعوبات لا تزال بين عشية وضحاها بعصا سحرية، وعلينا أن نقدم الواجب قبل أن نطالب بالحقوق، فالحق...يجذب الانتفاعيين والوصوليين والانتهازيين

كما يجذب العسل الذباب، بينما كلمة الواجب لا تجذب غير النافعين الذين يسعون حقا لنهضة مجتمعهم، فالفرد في المجتمع المتخلف يطالب بحقوقه قبل أن يقوم بواجباته، بينما أداء الواجب هو الكفيل الوحيد بالحصول على الحقوق، فإذا أردت أن تصلح أمر الدولة أصلح نفسك.

ثانيا: مشكلة التراب: حينما يتكلم (مالك بن نبي) عن التراب لا يبحث في خصائصه وطبيعته، ولكن يتكلم عن التراب من حيث قيمته الاجتماعية، وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة، وحضارتها متقدمة، يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة- كما هو الحال اليوم- يكون التراب على قدرها من الانحطاط، وذلك بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه، فها هي رمال الصحراء تغزو بشراسة الحقول الخضراء على امتداد الوطن العربي، فتترك أهلها يتامى بين يدي الصحراء المقفرة، وبديهي أنه لا حل لهذه الأزمة غير الشجرة، لكن إذا كان الإنسان الزارع لهذه الشجرة أو المؤتمن على رعايتها، يعيش حالة تصحر داخلي، فلا أمل من رؤية اللون الأخضر مرة ثانية تحت نظر ويد إنسان كهذا، فسنويا يعلن المسؤولون أنه تم غرس عشرات الملايين من الأشجار، لكننا على يقين أن واقع الحال غير ذلك سواء لعدم العناية المستمرة، أو لعدم الدقة في الرقم الإحصائي.

إن ترابنا العربي لا يزال بكرا، رغم كل أشكال النهب التي مورست عليه في السطح أوفي العمق من قبل الآخرين، وعلى الأغلب بسبب إهمالنا له وبشكل عدواني.

ثالثا: مشكلة الوقت: وهو العنصر الثالث في تكوين الحضارة، إن الزمن نهر قديم يعبر العالم، ويروي في أربع وعشرين ساعة الرقعة التي يعيش فيها كل شعب والحقل الذي يعمل به، وهذه الساعات التي تصبح تاريخا هنا وهناك قد تصير عدما إذا مرت فوق رؤوس لا تسمع خريرها، وإذا قسنا الزمن بمقياس الساعات التائهة فالقرون لا تساوي شيئا.

ولكنه نهر صامت حتى إننا ننساه أحيانا، وتنسى الحضارات في ساعات الغفلة قيمته التي لا تعوض، وحينما لا يكون الوقت من أجل الإثراء أو تحصيل النعم الفانية، أي حينما يكون ضروريا للمحافظة على البقاء، أو لتحقيق الخلود والانتصار على الأخطار، يسمع الناس فجأة صوت الساعات الهاربة، ويدركون قيمتها التي لا تعوض، ففي هذه الساعات لا تهم الناس الثروة أو السعادة أو الألم، وإنما الساعات نفسها، فيتحدثون حينئذ عن (ساعات العمل)، فهي العملة الوحيدة التي لا تبطل، ولا تسترد إذا ضاعت، إن العملة الذهبية يمكن تضيع، وأن يجدها المرء بعد ضياعها، ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تستعيد دقيقة إذا مضت، وحظ الشعب العربي والإسلامي من الساعات كحظ أي شعب متحضر، ولكن عندما يدق الناقوس مناديا الرجال والنساء والأطفال إلى مجالات العمل في البلاد المتحضرة...

فأين يذهب الشعب؟ تلكم هي المسألة المؤلمة... فنحن في العالم الإسلامي نعرف شيئا يسمى (الوقت)! ولكنه الوقت الذي ينتهي إلى "عدم" ولأننا لا ندرك معناه ولا تجزئته الفنية، لأننا لا ندرك قيمة أجزائه من ساعة ودقيقة وثانية، ولسنا نعرف إلى الآن فكرة (الزمن) الذي يتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ، وبتحديد فكرة الزمن يتحدد معنى التأثير والإنتاج، وهو معنى الحياة الحاضرة الذي ينقصنا، هذا المعنى الذي لم نكسبه بعد، هو مفهوم الزمن الداخل في تكوين الفكرة والنشاط، في تكوين المعاني والأشياء.

فالتاريخ والحياة الخاضعان للتوقيت كان وما يزال يفوتنا قطارهما، فنحن في حاجة ملحة إلى توقيت دقيق، وخطوات واسعة لكي نعوض تأخرنا، ذلك بتحديد المنطقة التي ترويها ساعات معينة، من الساعات الأربع والعشرين التي تمر على أرضنا يوما، إن وقتنا الزاحف صوب التاريخ، لا يجب أن يضيع هباء، كما يهرب الماء من ساقية خربة، ولاشك أن التربية هي الوسيلة الضرورية التي تعلم الشعب العربي الإسلامي تماما قيمة هذا الأمر. ولكن بأية وسيلة تربوية؟ إنه من الصعب أن يسمع شعب ثرثار الصوت الصامت لخطى الوقت الهارب!. إن شعبا هذه حاله أحوج ما يكون إلى قدوة وطنية قيادية حازمة في تطبيق القانون على الجميع، ولا تسمح لأي انحراف عن مشروع النهضة التي تعلنه ريثما يعتاد الأفراد على هذا السلوك في حياتهم اليومية فتصبح ساعات العمل حقيقية، ومن خلال إنسان يستطيع استغلال الوقت على أكمل وجه نستطيع أن نقول: أننا بدأنا

نهضة عملية علمية حقيقية وفق خوارزميات التغيير الاجتماعي التي تناسبنا، والنهضة لا تقوم إلا بأيدي الأتقياء والأذكياء.

ويعلق **غازي التوبة** في مؤلفه: الفكر الإسلامي ص 78 على هذه المعادلة (الإنسان +التراب+ الوقت) وفق تصور خاص قائلا:

"إذا أخذت الحضارة الغربية في استغلالها للتراب أحسن استغلال إضافة إلى الاستفادة الجيدة بالوقت ولكن لم يختنق الإنسان في أية حقبة تاريخية سابقة كما اختنق في عصرنا ولم يشق الإنسان بترابه ووقته كما شقي في قرننا، ولم يتأذى الإنسان بمنجزاته كما تأذى إنسان الآلة فاستغلال الإنسان إذن للتراب والوقت لا يعطي بالضرورة حضارة حسب المعادلة: إنسان + وقت + تراب= حضارة

فقد يكون: إنسان+ وقت+ تراب= دمار

لم يشر غازي التوبة في هذا الطرح إلى دور الفكرة الدينية في تحريك هذه المعادلة لكن التأمل السليم يفرض أن نوعية الدين واتجاهه يؤثر بشكل مباشر في نوعية الحضارة واتجاهها، فأوروبا مثلا عندما حرفت المسيحية جعلت الدين يتجه وفق منطق الاستعمار والاستغلال.

إن الفكر الصحيح هو الذي ينتج النهضة وليس هو ذلك الذي يبرر الوضع المفروض كما فعل مالك بن نبي في حديثه عن الاستعمار... إذ رأى أن الاستعمار أدخل منتجات حضارته إلى المستعمرات التي عرفت معه جانبا مهما من التطور البشري كما أن الاستعمار بما أدخله إلى مستعمراته من سلوكات أثرت على الحياة الثقافية لسكان تلك

المستعمرات بل إن: تأثير أوروبا كان حتى في الميادين التي لا يتوقع فيها مثل ميدان النشاط المعادي للاستعمار[1].

إن الاستعمار بنظر "بن نبي" خلع علينا بابنا وزعزع دارنا وسلب من أشياء ثمينة ولكنه: "أيقظ الشعب الذي استسلم لنوم عميق بعد الغذاء الدسم الذي أكله عندما كان يرفل في نعم حضارته والتاريخ قد عودنا أن كل شعب يستسلم للنوم فإن الله يبعث عليه سوطا يوقظه"[2].

لكن السوط الذي يوقظ يمكن له أيضا أن يسبب عاهات أو أن يربك المستيقظ فلا يتجه الوجهة الصحيحة فكيف والعالم الإسلامي قد ظل زمنا طويلا دون أن يعرف وجهته الصحيحة. هذا يعني من جديد أن الفكر الصحيح هو الذي ينتج النهضة.

---

[1]– بن نبي (مالك): الفكرة الأفروأسيوية، ترجمة شاهين عبد الصبور، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1981، ص 256.

[2]– بن نبي (مالك): شروط النهضة، مرجع سابق، ص 149.